المغرب (١): حوار مع خالد السفياني حول فلسطين والشارع المغربيّ

أجراه: عبد الحق لبيض، مراسل الآداب في المغرب

خالد السفياني

كيف تحدِّدون ظاهرةَ الاحتجاج العربيّ، اجتماعيّاً وسياسيّاً ونفسيّاً؟ وكيف يمكننا أن نتحدث اليوم عن مفهومٍ ما للشارع العربيّ، كما هو قائم في الغرب؟

تشكّل التظاهرة الشعبيّة مجالاً لإبلاغ وجهات النظر، ولإيصال رسائل تُدافع عن قضيّةٍ ما أو موقفٍ معيّن. وهي أيضًا مظهرٌ من مظاهر التواصل مع بقيّة الشعوب، ومع مختلف الأنظمة. في الدول الديمقراطيّة يكون التظاهرُ في العادة مسألةً عاديّةً، ولا يَحْدث من جرّائه أيُّ مشاكل. وذلك راجعٌ إلى نوع التربية التي يتمتع بها مواطنو هذه البلدان، وإلى مجال الحريّة المُعطى لهم من لدن السلطات؛ فهذه يَقْتصر دورُها في التظاهرات على التوجيه والتأطير، ولا تتدخّل إلاّ في الحالات التي يُمسّ فيها النظامُ العامُّ ـ بالشكل الحقيقيّ لا بالمعنى الذي يُعطى في الدول غير الديمقراطيّة. وأمّا ظاهرة نزول المواطنين العرب إلى الشارع للتعبير عن قضاياهم فهي ظاهرةٌ جديدةٌ ولم تنضجْ بعدُ لتصير سلوكًا اعتياديّاً في الممارسة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. إنّ الشارع العربيّ لم يتحوّل بعدُ إلى فعلٍ مؤسِّسٍ في معظم البلاد العربيّة، وتعترضه معوّقاتٌ بنيويّةٌ أساسيّةٌ تتجلّى أهمُّ مظاهرها في عدم اكتمال بناء المجتمع المدنيّ في بعض البلدان العربيّة، وفي غياب هذا المجتمع في بلدان أخرى، إضافةً إلى ما يواجهه المجتمعُ العربيُّ من سلوكاتٍ لاديمقراطيّة من طرف الأنظمة الشموليّة.

إنّ موجات الاحتجاج التي عرفها العالمُ العربيّ في الشهور الأخيرة إنّما فرضتْها التطوراتُ المأساويّةُ التي يتعرّض لها الشعبُ الفلسطينيُّ. وكلما كَبرت القضيةُ، كبرتْ معها الحاجةُ إلى التظاهر، ومن ثم كبر حجمُ التظاهر ذاته. ففي المغرب مثلاً، عندما وصل الإجرامُ الصهيونيُّ ـ الأميركيّ إلى ما وصل إليه، كان من الطبيعيّ أن يخرج أكثرُ من ثلاثة مليون مواطن إلى شوارع الرباط للتعبير عن موقف ثلاثين مليون مغربيٍّ متعلّقٍ بقضيّة فلسطين ومنشغلٍ بها. والملايين التي طافت شوارع الرباط كانت تحمل رسائل محددة:

أولاً: رسالة إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة يندِّد فيها المتظاهرون بتواطئها المفضوح في حرب الإبادة التي يتعرَّض لها الشعبُ الفلسطينيُّ، ويطالبون باتِّخاذ مواقف صارمة ضدّها (مثل مقاطعة البضائع الأمريكيّة).

ثانيًا: رسالة إلى الرأي العام الدوليّ لحثّه على التحرك والضغط بكل الوسائل من أجل إيقاف المذابح.

ثالثًا: رسالة إلى الحكّام العرب، الذين أحسَّت الجماهيرُ أنّهم لم يقوموا بواجبهم تجاه ما يجري في فلسطين.

رابعًا: رسالة إلى الشعب الفلسطينيّ، وذلك حين أراد المغاربة أن يقولوا له إنّه ليس وحده في ساحة المعركة.

خامسًا: إحساس المغاربة أنّ مَنْ لا يزال يفكّر أو يتحدَّث بإمكانية التطبيع مع بعض الصهاينة. فهم حين يتظاهرون يقولون لهؤلاء إنّ الصهيونيّة ملّة واحدة، لا حمائم فيها ولا صقور.

هل يتّخذ الشارع العربيّ المظاهرة القوميّة وسيلةً لحلّ معضلاته الداخليّة، ولزعزعة «النظام العام» ـ وهو ما تبرِّر به الأنظمةُ العربيّة قمعَها للمظاهرات في الشارع العربيّ؟ أم أنّ للأنظمة حساباتها في السماح، في فترات معينة، للجماهير بأن تنزل إلى الشارع؟ لنتذكرْ أنّه حتى الأمس القريب مَنَعَت السلطاتُ المغربيّة تظاهراتٍ مساندة للقضيّة الفلسطينيّة، وقمعتْ مظاهراتٍ أخرى تحتجّ على الأوضاع الداخليّة، لكنها احتفت رسميّاً بمظاهرة ٧ أبريل ووفَّرتْ لها كلَّ وسائل النجاح، وعلى رأسها الإعلامُ الرسميّ.

التظاهر هو أداة للتعبير وأداةٌ للضغط أيضًا. فالمتظاهرون الإنجليز والأميركيُّون عندما خرجوا إلى الشارع كانوا يَهْدفون إلى الضغط على حكومتيْهما من أجل أن تغيِّرا موقفهما من الكيان الصهيونيّ. وأما التظاهرات العربيّة فهي أساسًا أداةٌ للتعبير، ولكنْ يمكنها أن تمارس ضغطًا جزئيّاً على الأنظمة العربيّة. فمثلاً، عندما حَمَلَ ملكُ

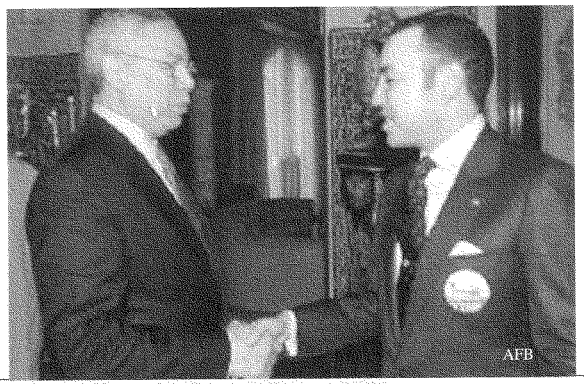

حمل ملك المغرب شارة «كلنا فلسطينيُّون» أثناء استقباله كولن باول

المغرب شارةَ «الجمعيّة المغربيّة لمساندة الكفاح الفلسطينيّ» أثناء استقباله وزيرَ خارجيّة أميركا كولن باول، والتي كُتِبَ عليها بالبنط الأسود «كلنا فلسطينيُّون،» كان ذلك تعبيرًا صريحًا منه بأنّه يستقبل باول ولكنّه منخرط بشكلٍ كاملٍ في ما عَبَّر عنه الشارعُ المغربيُّ في تظاهرة ٧ أبريل.

كما أنّ العالم الغربيّ، الذي هو في حاجة إلى استقرار بعض الأنظمة في المنطقة، سيجد نفسَه ملزمًا باتخاذ واقع تلك الأنظمة في الاعتبار حتى لا تتحوّل التعبيراتُ عن السخط والغضب إلى فعل ماديّ أكبر، فيترتّب على ذلك نوعٌ من عدم الاستقرار في تلك المنطقة.

ولقد أدت المظاهرات إلى التغيير في كثير من الحالات، كان آخرها في فنزويلا، حيث عاد الرئيس المخلوع بقرارٍ من الشارع. وكان للشارع في القرن العشرين دور مشهود في إحداث تغييرات جذريّة في أوروبا الشرقيّة. هذا الأمر يحصل عندما ينقطع حبلُ التواصل بين الشارع والحكّام. أمّا عندما يكون ثابتًا وقائمًا، فالتظاهرات لا تتّجه هذا الاتجاه. وعندما يكون هناك وعي كامل بارتباط التظاهرة بقضيّة معيّنة، فإنّ التظاهر يكون من النضج بحيث لا يَسْمح بالانحراف عن الهدف الذي نُظّمت التظاهرةُ من أجله. لذلك أعود إلى مسيرة الرباط في ٧ أبريل أو مسيرة ٨ أكتوبر ٢٠٠٠. فعندما يَخْرج الملايينُ إلى الشارع، وباتفاق الجميع أنّ الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة الداخليّة في المغرب ليست على ما يرام، ويَخْرج أيضًا مسؤولون حكوميُّون إلى الشارع، ولا نجد من المواطنين مَنْ يتوجّه إلى هؤلاء بالسؤال حول الوضعيّة الداخليّة للبلاد، لأنّ الكلّ منشغل بهدف واحد هو مناصرة الشعب الفلسطينيّ، أفلا يؤكّد هذا نضجَ المواطن المتظاهرِ وإدراكَه لهدف التظاهر؟

ولكنّ التظاهرات العربيّة هي إمّا مخطَّطٌ لها من طرف الأنظمة لخدمة هدف الحاكم، أو مؤطَّرةٌ من طرف هذا الحزب أو ذاك لخدمة أهدافه الإيديولوجيّة والتنظيمية، أو قد تكون حالةً من حالات التنفيس عن الجماهير ولو بشكل سطحيّ. السؤال هو: هل استطاعت التظاهرة الاحتجاجيّة العربيّة لصالح فلسطين أن تصل إلى أسماع أصحاب القرار السياسيّ العربيّ، حتى وإنْ لم نأملْ في التأثير فيهم؟

بل لنقلْ إنّ المسيرات الاحتجاجيّة العربيّة نجحتْ إلى حدٍّ ما في التأثير في هؤلاء!

كيف؟

بدءًا، أنا لست موافقًا على تصنيفكَ للمسيرات في عالمنا العربيّ. مثلاً، مسيرة الرباط الأخيرة هي مسيرةٌ شعبيّةٌ خالصة، وإنْ شارَكَ فيها رئيسُ الوزراء بصفته الكاتبَ الأولَ لحزب الاتحاد الاشتراكيّ. وهذه المسيرة لم تُمْنع كسابقاتها من المسيرات الشعبيّة لأنّ السلطة كانت مضطرةً للترخيص لها تحت ضغط المرحلة، لا لأنّها كانت تَرْغب في التنفيس عن الجماهير. فالسلطات في المغرب كان لديها انطباعٌ عن درجة الغليان التي توجد في الشارع المغربيّ، ولم تكن المسيرة مخطَّطًا لها رسميّاً، وإنْ كان مخطَّطًا لها من طرف «الجمعيّة المغربيّة لمساندة الكفاح الفلسطينيّ» وبتنسيق مع كل الأحزاب والنقابات وجمعيّات المجتمع المدنيّ. وما نحمد الله عليه في المغرب أنّ «الجمعية المغربيّة» ما تزال قادرةً على أن تنسّق عمل كلّ هذه الأطراف على طاولة واحدة، ليتفقوا على ضوابط معيّنة، وعلى طريقةٍ لتنظيم المسيرة يَغْلب على مناقشاتها طابعُ المسؤوليّة والجدّيّة. إضافةً إلى ذلك، كان المغرب قد شهد، طيلة الأيام السابقة على مسيرة الرباط، مئاتِ المسيرات العفويّة والمنظّمة المتضامنة مع الشعب الفلسطينيّ. ويجب ألا ننسى أنّ ثمّة مسيرات حصلتْ في مدن صغيرة، فخرج أبناؤها عن بكرة أبيهم: ففي مدينة صغيرة، كمدينة القصر الكبير في شمال المغرب، خرجتْ مظاهرةٌ عفويّة من ستّين ألف مشارك، لم يجيِّشهم أحد، للتعبير عن مساندتهم للشعب الفلسطينيّ. كما نُظّمتْ وقفاتٌ احتجاجيّةٌ قامت بها قطاعاتٌ مهنيّة

المغرب (١): حوار مع خالد السفياني حول فلسطين والشارع المغربيّ

متعددة، مثل المحامين والأطبّاء والمهندسين والتعليم العالي والطلبة. من كل هذا نستنتج أنّ التحرك كان شعبيّاً خالصًا، وقطاعاتيّاً محضًا منظّمًا من طرفِ المنظّمات الجماهيريّة. أردتُ أن أُوضحَ هذا الجانب حتى نزيلَ الغموضَ الذي حاول البعضُ أن يُحْدثه في مسيرة الرباط : وقد كان ذلك طبيعيّاً: فـفلسطين لها أعداءٌ في المغرب، نسمّيهم «المتصهينين،» ولا يُمْكن أن يرضيَهم أن يَخْرج من أجل فلسطين الملايينُ من المغاربة إلى الشوارع.

أما عن تأثير هذه المظاهرات في صنّاع القرار السياسيّ العربيّ، أَفَلا يمكن أن تَعْتبروا أنّ حمل الشّارة من طرف ملك المغرب أثناء استقباله باول نتيجةٌ مباشرةٌ لمسيرة الرباط، كما سبق أن ذكرتُ؟ أليس ذلك تعبيرًا عن انخراط القيادة السياسيّة العليا في البلاد في الموقف الشعبيّ، وتعبيرًا عن أنّ الملك يقول لأمريكا إنّ وراءه كلَّ هتافاتٍ ٧ أبريل وكلَّ معانيها؟ وخذْ مثلاً ثانيًا هو تأثيرُ حركةَ الجماهير المغربيّة في قضيّة مكتب الاتصال الصهيونيّ، الذي أُقفل بشكل رسميّ وطُرد مَنْ كان قائمًا عليه هنا، كما استُدعي القائمُ بأعمال مكتب الاتصال المغربيّ في إسرائيل. وخذوا مثلاً ثالثًا، هو اضطرارُ النظام المصريّ إلى إرضاءٍ جزئيّ جدّاً لمطلب الشارع المصريّ، عندما قرّر قطعَ علاقاته مع الكيان الصهيونيّ باستثناء العلاقة الدبلوماسيّة. صحيح أنّ هذا الموقف يدعو إلى الاستغراب، بالمقارنة مع وعي غربيّ تذهب فيه بعضُ البرلمانات الأوروبيّة إلى الدعوة إلى قطع العلاقات مع الكيان الإسرائيليّ. ومع ذلك، فهذا القرار في حدّ ذاته ما كان سيُتَّخذ إطلاقًا لو لم يتحرّك الشارعُ المصريّ.

سأعطيكم مقابلَ ما قلتموه جوابَ الرئيس المصريّ على مطالب الشارع المصريّ عند استقباله رؤساءَ التحرير في مصر. فقد قال إنّه لن يستجيب لنداءات الشارع، لأنّ ذلك يتعارض مع المصالح الإستراتيجيّة لمصر. أيْ أنّ الشارع في العالم العربيّ مازال يعامَلُ، من طرف الأنظمة، باعتباره غيرَ مدركٍ لمصالحه القوميّة. ونتيجةً لذلك، يظل التنازع بين «واقعيّة» الأنظمة العربيّة و«اندفاعيّة» الشارع العربيّ وفورته العاطفيّة، حيث الجماهير تقول ما تشاء دون أن يكون لذلك أدنى تأثير في التوجُّه العامّ للحاكم. فكيف يمكن الحديث عن تأثير الشارع العربيّ في خلفيّة اتخاذ القرار السياسيّ العربيّ؟

الكلام نفسه قاله رئيسُ بولندا قبل أن يطاح به من طرف الجماهير، وقاله زعماءُ آخرون وَجَدوا أنفسَهم محكومين بإرادات الشارع. الرئيس المصريّ لا يستطيع الضرب عرضَ الحائط بالتعليمات الأمريكيّة بشكل كامل، شأنه في ذلك شأن العديد من الحكّام العرب، إلاّ أنّه يدرك أنّ الشارع يمكنه أن يغيِّر النظام نفسَه إذا ما تمادى هذا في قطع أواصر التواصل معه. وإلاّ فكيف يمكننا تفسيرُ رفضِ مبارك استقبال وزير الخارجيّة الأمريكيّة؟ هل كان يُمْكن مجرّدُ التفكير في ذلك لولا ضغطُ الشارع؟ هذه إشارات بسيطة لا تأثيرَ حقيقيّاً لها في معركتنا الوجوديّة ضد إسرائيل، وفي موقفنا من الإرادة الأمريكيّة، لكنّها بداياتُ التأثير الجماهيريّ والرأي العام العربيّ في خلفيّات صياغة القرارات السياسيّة القوميّة. وإذا استمر الشارع العربيّ في التحرُّك فسوف يُضطرَّ بعض الحكام العرب المترددين حاليّاً إلى الارتقاء إلى نبض شوارعهم، أو إلى أن يخطئوا في حقّ شعوبهم وفي حقّ مكانتهم أيضًا. هذه هي سنّة الحياة، وطبيعة التاريخ.

لضمان استمرار الضغط على الحكّام العرب وإيصالِ صوت الشارع العربيّ إلى المجموعة الدوليّة، لا بدّ من الانتقال بهذه الحركة الشعبيّة من العفويّة والاندفاعيّة إلى العقلنة، وإلى محاولة تأطيرها في اتجاه محدد ومعروف المعالم والمقاصد. فهل هناك تفكير في إيجاد مثل هذا الإطار؟

في المغرب كل النضالات المرتبطة بالقضايا القوميّة هي نضالاتٌ مؤطَّرة. وحتى الكثير ممّا يَظْهر عفويّاً إنّما هو مؤطّر من طرف مكوِّناتٍ سياسيّة أو ثقافيّة أو جمعيّاتيّة. ولحدّ الآن، ميزةُ المغرب تَكْمن في أنّ له جمعيّةً واحدةً تُعنى بالشأن الفلسطينيّ على المستوى الشعبيّ، هي «الجمعيّة المغربيّة لمساندة الكفاح

الثابت في مظاهرة الرباط المليونيّة هو الإجماع الذي احترم الاختلاف

الفلسطينيّ.» ومنذ بداية انتفاضة الأقصى، و«الجمعيّة» تشتغل بتنسيق كامل مع منظّمات المجتمع المدنيّ الأساسيّة في المغرب، كما ذكرتُ سابقًا. وهذا ما يجعل هذه التظاهرات الضخمة لا تخرج عن هدفها على الإطلاق. طبيعيٌّ أن يكون هناك اختلافٌ في الراية التي يحملها هذا المواطنُ أو ذاك، لكنْ حتى الآن لم يَثْبت أنّ تظاهرةً نُظِّمتْ من أجل فلسطين وَقَعَتْ فيها انزلاقاتٌ أو خرجتْ عن أهدافها.

تاريخ التظاهرات في المغرب قد يُثْبت العكس. فقد كانت هناك انزلاقات مكشوفة. مثلاً، في التظاهرة من أجل مساندة العراق، خرج الإسلاميون عن الشعارات المتوافق عليها من طرف لجنة التنظيم التي كانوا طرفًا أساسيّاً فيها.

هذا لا يُعتبر تجاوزًا في اعتقادنا! إضافةً إلى أنّنا في المظاهرة من أجل العراق كنا في بدايات التماسّ بين مكوّنات السياسة المغربيّة؛ وطبيعيٌّ أن يَصدر هذا السلوك عن هذا الطرف أو ذاك. لكنْ في ما يتعلّق بالقضيّة الفلسطينيّة، التي تُشْرف «الجمعيّة» على التظاهر لفائدتها وتنظيم فعاليّات عديدة بشأنها، نستطيع أن نؤكّد أنه كانت هناك مواقفُ متعدِّدةٌ مشترَكة تتمّ عن طريق التوافق بين كافة الفصائل السياسيّة. مثالُ ذلك: نداءُ المجتمع المغربيّ إلى اجتماع قمّة عربيّة: فقد هُيِّئ هذا النداء من طرف «الجمعيّة،» ووُجِّه باسم كلّ المكوّنات الفاعلة، ولم يَعْترض أيُّ مكوّن عليه.

حين يستمع المرءُ إلى حديثكم، يخيَّل إليه أنّ المجتمع السياسيّ المغربيّ براء من كل الصراعات المذهبيّة والفكريّة وصراع المصالح وتسجيل المواقف، أو كأنّ المسيرات المناصرة لفلسطين تَخْرج فيها كلُّ التشكيلات المجتمعيّة بهدف المساندة الخالصة. غير أنّنا نؤكّد أنّ تاريخ الاحتجاج من أجل القضيّة الفلسطينيّة مليء بالإرادات الهادفة إلى استغلال هذه القضيّة من أجل أغراض ذاتيّة ومصالح ضيّقة.

قلتُ إنّني أتمنى أن يستمرّ هذا الإجماع الذي ظهر في مظاهرة ٧ أبريل. من المؤكّد أنّ البعض يحاول أن يستغلّ القضيّة. وهذا بالذات ما فَرَضَ علينا الاستمرارَ في العمل الجماعيّ، حرصًا على ألاّ تصبح القضيّة الفلسطينيّة قضيّةَ تصفية حسابات داخليّة، أو قضية مَنْ لا قضية له، أو مجالاً للمزايدة السياسيّة والمذهبيّة، لأنّ الخاسر الأكبر سيكون القضية الفلسطينيّة نفسها، ومعها كذلك المجتمعُ المغربيّ. لا أحد يُنْكر حصولَ خروقات في المظاهرة الأخيرة. لكنْ، بإجماع المكوّنات الأساسيّة في المظاهرة، استطعنا أن نُبْطل كلَّ المحاولات الهادفة إلى استغلال هذا الظرف التاريخيّ الحسّاس من طرف هذا الاتجاه السياسيّ أو ذاك التيّار النقابيّ. وكما لاحظتم، فإنّ مسيرة الرباط لم يكن فيها فرقٌ بين الإسلاميّ واليساريّ واليمينيّ والوسطيّ: فالكلّ كان مختلطًا. قد تجد بعضَ المجموعات الصغيرة، هنا وهناك، تحاول الخروجَ عن الإجماع أو التشويشَ على السير العاديّ للمظاهرة: وهي معروفة النوايا مكشوفةُ الأغراض، مشهودٌ لها بعدائها للقضية الفلسطينيّة. لكنّ الثابت في المظاهرة هو الإجماعُ الذي احترم الاختلاف. فقد كنتم تجدون خمسة مواطنين يسيرون جنبًا إلى جنب ويهتفون بالشعار نفسه، لكنّ أحدهم يَحْمل رايةَ حزب الله، والثاني يحمل رايةَ الاتحاد السوفيتيّ، والثالث يَحْمل صورةَ الشيخ أحمد ياسين، والرابع يحمل صورةَ ياسر عرفات، والخامس يحمل صورةَ غيفارا. وما نقوله عن هؤلاء الخمسة يَنْطبق على مختلف التوجُّهات التي كانت مشاركةً في المظاهرة. ولذلك لا أريد أن يُفْهم من كلامي أنّ الصعوباتَ غير موجودة. لكنّ الإجماع الذي تحقق في مسيرة الرباط الأخيرة يَجْعلنا نَأْمل في تجاوز مثل هذه الخروقات البسيطة.

شعارات الرباط الأخيرة أشَّرتْ على عدم نضج الشارع المغربيّ. وهذا يؤكّد أنّ القوّة المدنيّة المؤطِّرة لهذه الجماهير لم تَنْجح بعدُ في الوصول إلى مخاطبة عقل المواطن المتظاهر بدل وجدانه. فهي لم تتمكّن من تحسيس المواطنين بالأبعاد الخطيرة لتوظيف شعاراتنا في الإعلام الغربيّ بالخصوص من أجل تبرير السلوك العدوانيّ الصهيونيّ. فهل تتصوَّرون أنّ شعارًا مثل: «خيْبر

المغرب (١): حوار مع خالد السفياني حول فلسطين والشارع المغربي

خيْبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود» يمكنه أن يقدِّم رسالةً محددةً تَخْدم إستراتيجيّةَ الصراع العربيّ ـ الصهيونيّ؟ أوَليس من شأن هذا الشعار أن يحوِّل طبيعة هذا الصراع بين مظلوم وظالم إلى صراع دينيّ سيواجِه مقاومةً شديدةً من لدن الرأي العام الدوليّ؟ ألسنا بهذا الشعار أيضًا نَقْلب الحقائق التاريخيّة، بحيث نَنْسب النزعةَ الصهيونيّةَ إلى الديانة اليهوديّة وإلى بني إسرائيل الذين عاشوا إلى جانب المسلمين في شبه الجزيرة العربيّة وكافة الأراضي العربيّة الإسلاميّة؟ كما رَفَعَتْ مظاهرةُ الرباط شعارَ «شارون النازيّ والمجرم.» ألاَ ترون أنّ شخصنة الصراع قد تكون غايةً صهيونيّةً أساسًا؟ أَلَيْس من الأَوْلى في مثل هذه المظاهرات الحاشدة، التي تغطيها وسائلُ الإعلام الدوليّة، أن يتمّ الكشف عن الصورة الإجراميّة للصهيونيّة طيلة تاريخها الدمويّ؟ وأخيرًا، أليس من الأجدى التركيزُ على تصوير الصهيونيّة بوصفها إفرازًا للحركة الاستعماريّة الغربيّة التي عرفها العالمُ في القرنيْن التاسع عشر والقرن العشرين؟ فمن شأن هذا الشعار أن يؤثِّر أكثر في الضمير الغربيّ لأنّه يَجْعله في مواجهة تاريخه الدمويّ وأمام عقدة مساهمته التاريخيّة في إيجاد الصهيونيّة ودعمها. فكيف كنتم، وأنتم قوّة مدنيّة مؤطَّرة للجماهير، تفكِّرون في هذه الشعارات وتتوافقون حولها في غياب أدنى درجات الوعي النقديّ؟

دعني أقلْ لك إنّ أكبر شيء كنتُ فخورًا به في مظاهرة الرباط الأخيرة هو ما حمله المواطنون البسطاءُ من لافتات ومن لوحات. صدِّقْني أنّ الشعب المغربيّ أثبتَ أنّه شعبٌ مبدعٌ خلاّق، وأنّه يعيش حقيقة القضيّة الفلسطينيّة. فقد اندهشتُ اندهاشًا كبيرًا من الأشياء الكثيرة التي أنجزها المواطنون وأتوا بها بشكل تلقائيّ إلى المظاهرة. وهذا الجانب العفويّ مباحٌ في مثل هذه التظاهرات، التي لا يُمْكنها أن تكون حبيسةَ التصوُّر المنطقيّ والعقلانيّ والمعرفيّ الذي يبلوره المثقفون والأكاديميُّون.

أعود إلى مسألة الشعارات التي رُفعتْ في المظاهرة لأقول إنّه في إحدى المرّات أُنجزَ مَحْضرٌ مكتوبٌ رسميّاً من كل المكوِّنات التي دعت إلى المسيرة، وقد كان من بنود هذا المحضر أنّ الشعارات واللافتات يجب ألا تمسَّ المعتقدَ الدينيّة. وهَدَفْنا جميعًا إلى جعل كل الشعارات تسير في اتجاه إدانة الصهيونية لا اليهوديّة. لكنْ في مسيرة كمسيرة الرباط، عندما يَحْضر الملايين، لا يمكنك أن تَحْجب مثلَ هذه الشعارات بالكامل، مع أنّ إخواننا في التنظيمات الإسلاميّة المشاركة معنا انضبطوا للاتفاق.

أما تصوير شارون كوحش أو كنازيّ، فلم يكن مقصودًا في ذاته، وإنّما كان رمزًا فاضحًا لكلّ الجرائم الصهيونيّة. إضافةً إلى ذلك لم يكن شارون وحده هو مَنْ هاجمناه في المظاهرة؛ فنحن عندما اعتبرنا أنّ أحد الشعارات الأساسيّة في المسيرة هو أنّ التطبيع مع أيّ صهيونيّ يُعدّ خيانةً فإنّ ذلك يدلّ على أنّ الصهاينة عُمْلة واحدة لا فرق فيها بين حمائم وصقور. بل إنّنا عندما طالبنا في المسيرة بمحاكمة قيادات الكيان الصهيونيّ، لم نكن نستثني بيريس أو موفاز أو ايليعازر أو غيرَهم من قادة الإجرام الصهيونيّ. هناك قلّة من الناس يريدون أن يميِّـــزوا بين هذا وذاك داخل الكيـــان الصهيونيّ، لكنّنا واجهناهم وقلنا لهم في بياناتنا في المسيرة إنّهم يخدمون بمزاعمهم هاته المشروعَ الصهيونيّ. وقلنا إنّ شعاراتنا في مظاهرة الرباط كانت في حدود تسعين في المائة شعاراتٍ واعيةً وهادفةً ولا تحمل أيَّ نوع من الخلط الذي تحدثتَ عنه.

بما فيها شعارُ مقاطعة البضائع الأمريكيّة؟

طبعًا. هذا مطلب جماهيريّ، وسنعمل على تحقيقه بكل الوسائل.

المسألة ليست في أنّه مَطْلبٌ جماهيريٌّ أو نخبويٌّ، وإنّما المسألة هي: هل نحن درسنا هذا الشعارَ من كل جوانبه، وحدَّدْنا كلَّ مضاعفاته؟ هل هذا الشعار معقول ومنطقيّ؟

التظاهرات لا يمكنها أن تكون حَبيسة التصوّر المنطقيّ والعقلانيّ الذي يبلوره المثقفون

معقول جداً. بل هو المطلب الجماهيريّ الأكثر عقلانيّةً، مادام هو اللغة الوحيدة التي تفهمها أميركا. كان هدفنا من رفع هذا الشعار هو أن نُشْعر أميركا أنّ كل مصالحها الاقتصاديّة مهدَّدة إنْ هي استمرت في شراكتها في الإجرام الصهيونيّ، وأنْ نَضْغط على حكّامنا من أجل إعادة النظر في العلاقات الاقتصاديّة مع الولايات المتحدة الأميركيّة. والحقّ أنّ مقاطعة السلع الأميركية التي ننادي بها اليوم ليست تقليدًا جديدًا في المغرب. فالمغاربة كانوا من قبل قد قاطعوا البضائعَ الفرنسيّةَ في فترة مقاومتهم للاستعمار الفرنسيّ، ونَجَحتْ هذه المقاطعة بشكل كبير. فالمطلوب الآن من كل العرب، حكّامًا ومحكومين، أن يعيدوا النظر في علاقاتهم بكل الدول، لا بأميركا فقط، وأن يبنوا علاقاتهم معها انطلاقًا من مدى احترام تلك الدول للحق الفلسطينيّ والعربيّ.

إلى حين تحقيق هذا الحلم العزيز، هل تستطيعون أن تقودوا - باعتباركم قوّةً مدنيّةً تحظى بمصداقية كبرى داخل المجتمع المغربيّ - حملةَ مقاطعة البضائع الأمريكيّة من دون الاعتماد على قرار رسميّ بهذا الخصوص؟ وكيف لكم أن تحقّقوا هذا الهدف في ظلّ الممارسة اليوميّة للمواطن المغربيّ المتلهِّف على المنتوج الأمريكيّ؟ وكيف الوصول إلى سَنّ سياسة شعبيّة للمقاطعة مع استفحال ظاهرة العولمة واكتساح العالم بالشركات الكبرى المتعدِّدة الجنسيّات، وتنامي ظاهرة التمويه الاقتصاديّ بحيث بتنا نشتري بضائعَ أميركيّةً أو حتى إسرائيليّةً دون أن نعي ذلك؟

لا يمكننا أن ندّعي أننا وصلنا إلى وعي تامّ بأهمية مقاطعة البضائع الأمريكيّة. فنحن مانزال في بداية الطريق. ونحن متيقّنون من أنّنا سنصل إلى هذا الوعي. ودليلنا على ذلك ردودُ الفعل التي تلقيناها من مختلف شرائح المجتمع المغربيّ بعد مسيرة ٧ أبريل، وكانت كلُّها تطالب بتفعيل قرار المقاطعة الأمريكيّة. وعندما نقرر المقاطعة، فإننا لن نقاطع كلَّ شيء. فهناك رموز للاقتصاد الأمريكيّ يجب مواجهتها. ومعركتنا ستكون من هذا المنطلق.

من سلبيّات ظاهرة الاحتجاج العربيّ لفائدة فلسطين أنّها في الكثير من المحطات النضاليّة ارتبطتْ بالتيارات القوميّة أو بالتيارات الإسلاميّة، ولم نَعْمل على ربط القضيّة بالخط الإنسانيّ العامّ. وبعد الهجوم البربريّ على الفلسطينيِّين، بدأنا نلاحظ اهتمامًا بهذا الأمر الذي يؤشِّر على إمكانيّة تدويل ظاهرة الاحتجاج لفائدة القضيّة الفلسطينيّة. فكيف يمكن للقوى المدنيّة العربيّة، التي تؤطر ظاهرةَ الاحتجاج العربيّ، أن تتفاعل مع هذا المعطى الجديد؟

هذا التنسيق حاصل اليوم. ونحن نفكّر في تنظيم ندوة بين مختلف الجمعيّات غير الحكوميّة التي حضرتْ مؤتمرَ دوربان على صعيد البحر الأبيض المتوسط من أجل خلق شبكة متوسطيّة لدعم كفاح الشعب الفلسطينيّ. أما على المستوى العربيّ، فقد قرَّرنا في المؤتمر العربيّ العام، الذي ضمَّ القوميِّين والإسلاميِّين واليساريِّين، محاولةَ تفعيل شبكة دوليّة من المنظمات غير الحكوميّة التي ألحّت على اعتبار الصهيونيّة شكلاً من أشكال العنصريّة.

إنّ الصهيونيّة ما تزال تستعمل عقدةَ الهولوكوست ضد العرب والمسلمين في أوروبا وأمريكا وغيرهما. ومن الضروريّ أن يعرف العالمُ الحرُّ اليومَ أن ما تمارسه الصهيونيّة أخطر من النازيّة، ومن كل الجرائم التي عرفتها الإنسانيّة. ولذلك فمقارنة الصهيونيّة بالنازيّة ليست مقارنةً اعتباطيّةً، وإنّما لها هدف مباشر في تحسيس الرأي العام الغربيّ الذي تعاطف مع اليهود انطلاقًا من هذا الحادث التاريخيّ، وأن نُعْلمه أن عليه أن ينتظر عقدةَ ضميرٍ أقوى تجاه ما يقع حاليّاً للشعب الفلسطينيّ.

الرباط

خالد السفياني

رئيس الجمعيّة المغربيّة لمساندة الكفاح الفلسطينيّ.